

## الحضارة العربية وتأثيرها في بلاد خراسان الرحلة وسيلة من وسائل طلب العلم والمعرفة

سارة سلامة

صدر عن دار العرب للدراسات والنشر والترجمة كتاب للأستاذ الدكتور رحيم هادي الشخعي بعنوان «الحضارة العربية وتأثيرها في خراسان»، ويقع الكتاب في ١٧٠ صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على أربعة فصول: «العرب في خراسان وبلاد ما وراء النهر في العصر الأموي، وخراسان في العصر العباسي، وبغداد تستقبل علماء خراسان، والعلوم الأبية واللغوية في خراسان».

نظراً لأهمية بلاد خراسان في المشرق وقربها من مراكز الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها بهذه المراكز علمياً واجتماعياً وفكرياً، ما حدا بهذه البلاد أن تدخل في مناحي الحياة الفكرية العربية، والبدائية كانت عندما ظهر دور القبائل العربية في خراسان وتوطين هذه القبائل بعد الفتح الإسلامي في الأمصار الجديدة فتوجهوا إلى خراسان فاتحين ومستقرين ونتج عن هذا الفتح والتوطين إسهام القبائل العربية في نشر الإسلام، والتعريب اللغوي، ودفع الآداب العربية المشعة بالروح العربية الإسلامية إلى آفاق بعيدة كل البعد عن صحراء العرب ومواطنهم الأولى.

### ارتباط خراسان بالحضارة

وجاء في مقدمة الكتاب إهداء خصه الكاتب إلى كل الذين نشروا أجيادية الحرف العربي في ربوع العالم، وفجروا ينابيع العلم والمعرفة في بلاد خراسان علماء وأدباء وإشعاعاً من إشعاعات الحضارة العربية، ونشروا الحياة الفكرية في كل مناحي الحياة في المشرق، ليقراً الإنسان العربي في هذا الزمن الرديء، كيف توافد العلماء وظلة العلوم الدينية على الدراسة في بغداد في العصورين الأموي والعباسي حيث ارتبطت بلاد خراسان بالحضارة العربية عن طريق الرحلات التي سلكها طلاب العلم والمعرفة في بلاد وادي الرافدين، فكلما توغلت جذورنا في الماضي إزدادت زهورنا بهاء في الحاضر.

### بلاد ما وراء النهر

واحتوى الفصل الأول الذي جاء بعنوان «العرب في خراسان في العصر الأموي»، مضمناً عدداً من الباحثين، ومنها «بيته خراسان وبلاد ما وراء النهر والجغرافية والنشاط الاقتصادي الذي تناول وضع بلاد ما وراء النهر التي كانت تعرف بالترك سكاناً لها، فاذنيز بالقرن في خراسان يقال لهم: الترك العزيم، وأهل فرغانة: الترك الخرخلية، أما أهل الصغد: فهم الترك الصغدوني، ويفصل نهر جيحون بين هؤلاء الأقسام الناطقين بالفارسية، وقد يطلق على الأولين اسم توران، وعلى الآخرين اسم إيران نسبة إلى هيطل بن عالم وإن دون النهر الخراسانيين نسبة إلى خراسان بن عالم، وأطلق أهل خراسان وبلاد ما وراء النهر على أنفسهم اسم الأريين في نحو الألف الثالثة قبل الميلاد بعد أن ظهر فيهم زرادشت صاحب الديانة الزرادشنة، الذي ناصره الملك كشتاسب، وشنّ هو ورجاله حرباً لا هوادة فيها على مخالفيهم من العقيدة، وانحزل من الأريين شعبة اتجهت إلى الشرق عن طريق جبال الهندكوش، ونزلت حوض السند، ومنه اتجهت إلى شمال الدكن، وجنوب بلاد المهلدا، وخليج البنغال، وبحر العرب، وربما أطلقوا على مواطنهم أثريين ونجه، أي موطن الأريين، وهو أقدم مهد للحضارة العربية الإيرانية.

### الدراسة في العراق

أما الفصل الثاني فتناول به الشمخي موضوع «خراسان في العصر العباسي وجاء في أحد مباحثه فصل بعنوان «الدراسة في العراق» الذي ركز فيه على أن العلماء في ذلك الزمان اتخذوا من الرحلة وسيلة لاستتمام العلم، وإكمال المعرفة، فقبلت العالم منهم من مكان نشأته، ففتتفق بثقافة بيئته، ويتعلم علم أهله وبلده وإقليمه، ومهما بلغت مكانة العلماء الذين تتلمذ على أيديهم فبعد علمه غير تام إلا بالرحيل إلى المراكز العلمية المعروفة، التي كانت متعددة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، ومنها مدينة بغداد دار السلام، لقد كان العلماء تراوهم فكرة أن العلم لا وطن له وإيماناً



منهم بأن طلب العلم لا نهاية له، والعالم مهما بلغ علمه وارتفع شأنه، فيسجد عند غيره معارف وفوائد أو زوائد، قد لا تكون عنده. أهتم المسلمون بتدوين الحديث اهتماماً كبيراً، ولا تكاد تقرأ سيرة محدث إلا ونجدها مقرونة برحلات عديدة، إذ يأخذ الفقيه من الرواة بعضهم عن بعض، فقد تميز أئمة العلم في الإسلام، ولأسيما أئمة الحديث بكثرته الترحال وملازمة الأسفار.

### الرحلة في طلب العلم

وجاء الفصل الثالث بعنوان «بغداد تستقبل علماء خراسان»، الذي تناول فيه عدة مباحث منها «الرحلة في طلب العلم والمعرفة»، حيث تعد بغداد أحد أهم مراكز الجذب الثقافي في العصر العباسي فهي قبلة العلم والمعرفة ومنار العلماء والأدباء يقصدونها من كل حدب وصوب، وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء أثر في إرساء قواعد الثقافة العربية فقد أصبحت بغداد صرحاً ثقافياً مشهوراً وتحولت إلى محل جذب العلماء من المناطق كافة، فهي حضارة الخلافة العباسية، وقال عنها أبو بكر بن عياش: «العلم ببغداد أنها لصناعة تصيد الرجال، ومن لم يرها لم ير الدنيا». ونظراً لما تتمتع به بغداد من سمعة طيبة ومكانة مرموقة فقد كان من يدخلها بعيداً وطناً له، فنقل الخطيب البغدادي قولاً للشافعي يذكر فيه «ما دخلت بلداً قط إلا عدته سقراً، إلا بغداد فإني عدتها وطناً». ولمكانة بغداد المتميزة انتقل إليها العديد من العلماء من جميع البلدان القاصية والدائنة بل إن الكثير قد فضلوها على أوطانهم فليس من أهل البلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومصرف، وفيها من المميزات العديدة ما ليس في مدينة في الدنيا.

### الأدب العربي

وفي الفصل الرابع تطرق الشمخي إلى العلوم الأدبية واللغوية في خراسان والذي تضمن بحث «الأدب العربي»، حيث حفل الأدب بالعناية والاهتمام في خراسان فقد حفلت هذه الفترة بأدباء أجلاء، ألفوا في فنون الأدب وبلاغته وتاريخه، وكان الأدب يحوي فروع اللسان العربي متداخلة، فكان المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجابة في المظنوم والمنشور على أساليب العرب ومناحيهم من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجابة ومسايل في اللغة والنحو مبنوثة في أثناء ذلك، متفرقة، يستقرئ منها الناظر مغفلاً قوانين العربية، والمقصود بذلك كله لا يخفى على الناظر فيه، وعندما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا إلى ضبط معاني ألفاظه، وفهم أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم، وفي ذلك يقول أبي خلدون: «الأدب هو حفظ العرب وأخبارها والأخذ من كل علم يظرف يربودن على علم اللسان، والعلوم الشرعية، من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث، وهكذا كان القرآن منبعاً لثقافة روحية وعقلية جديدة.

### ثناء خضر السالم

في لغته سحر ينساب ببساطة وعفوية، ينقل إليك دفة الإحساس بالوطن في قصيدته وطني وفيها يقول:

وطني وطني ما أحلاه... في قلبي يزهر معناه  
فيه ولدت وفيه كبرت... وتعلمت دروس هواه  
وطني أمي وأبي وأخي... وصباح الخير حكاياه  
يغمرني حباً وحناناً... يحميني بأمان مداه  
هيا يا أطفال بلادي... كي تشدو أنغام علاه  
هيا نرسم غدنا الآتي... زهراً يضحك فوق رباه  
نحن الماء الدافئ فيه... وبراهتنا نور سماه

وفي قصيدة الحاسوب بيثُ إليك روعة الحاسوب وفائدته دون أن ينسى تذكير الطفل بطريقة غير مباشرة وتربوية بضرورة عدم البقاء لساعات طويلة أمام شاشته: عندي حاسوب شاطر يدهشني مثل الساحر بعد الدرس أطيّر إليه لأرى أجمل كون فيه.. إلى أن يقول: لكن كيلا أزهق بصري لا أكثر من وقت النظر إنّه الشاعر سائر إبراهيم الذي سار في طريق الشعر قدّم لنا الدهشة في اللغة والصورة:

بيدي أنقر زر الفأرة  
ففضيء الشاشة كالدرّة  
الشاعر سائر إبراهيم آله ما آل إليه الوطن فكتب في قصيدته ذات وطن: كانت حقول العمر أشهى يوم كان الحلم أعذب والوقت كان حمامة تغفو على شباك بيت شرع الأبواب للفرح الهطول إلى أن يقول: من كان يدري أن تحت وسادة الأحلام وحشّ كامنٌ وعلى مواثنا الشبهة في زوايا الدمار في حفل المواسم في قلب المومنين  
الشاعر سائر إبراهيم الحائز جوائز عدة أهمها جائزة الشارقة للإبداع عن ديوانه أناشيد الأزهار، والجائزة الأولى للإبداع الفكري في مسابقة سعد الصباح عن مجموعته حنين، وجائزة دبي الثقافية للإبداع العربي عن مجموعته: قمح الكلام. مع الشاعر سائر إبراهيم كان في هذا الحوار:

• أنجزت ديوان أناشيد الأزهار للأطفال. لماذا الأطفال؟  
لأنها عودة إلى المنابع الأولى وتطهير للفكر والروح بالنسبة للشاعر عندما يخلع عنه ستائر الزمن ويعيد لعينيته دهبشة وبراءة الطفل الذي في داخله.  
وهي أيضاً زراعة أمل وإضاءة فرح ومحبة في نفوس الأطفال الذين يكتب لهم لتكون ثمار مستقبلهم كما تأمل..  
بائعة ومكتنزة بالخير والجمال.

• هل مازال للشعر المنزلة التي كانت له سابقاً في الأدب القديم؟ هل مازال الشعر وزارة إعلام أم اختلفت المعايير؟

بالطبع اختلفت المعايير. وأرى أن اختلاف موقع الشعر ووظيفته حتمت في ظل التطور الذي يشهده عصرنا.. وتعدد أساليب التعبير ووسائل التواصل. وهذا لا يقلل من منزلته وإنما يغير من دوره ويجدد فيه شكلاً ومضموناً بما يتناسب مع حركة الزمن. فالمتلقي الذي يخاطبه الآن مختلف بالتأكييد في نمط حياته وتفكيره وهوموه من المتلقي الذي خاطبه الشعر القديم. وعلينا أن نكتب له بلغة وفكر طازجين يحس بهما وإلا انقلقنا على أنفسنا وابتعدنا عن واقعنا ومستقبلنا. وبرأيي للشعر والإبداع بشكل عام خصوصية في جمهوره ومحبيه في كل زمان وهو ليس حالة شاملة عامة.

الشاعر سائر إبراهيم: «الاستسهال آفة يتعرّض لها الشعر»

## أكتب مايقدر على حمل أفكاره ومشاعري دون عناية بالشكل



## زرعت الأمل في ديوان أناشيد الأزهار للأطفال لتكون ثمار مستقبلهم يانعة

وبالعكس يمكن الآن الوصول إلى المتلقي بعدة وسائل لم تكن متاحة في الماضي.

أما عن دوره الإعلامي فهذا ليس من أولويات ومهمات الشعر لأنه سيسقط في المباشرة والسطحية. فهو يتعدى ذلك إلى العمق والبعد الإنساني والقيمي للحدث أو الموضوع الذي يتناوله لأن الشاعر لا يتكلم عن الشيء بل عن أثر الشيء ويرى ما لا تستطيعه الكاميرا ويبقيه للزمن بعد انقضاء الحدث.

• بين شعر التفعيلة والشطرنج أين تجد نفسك، وقلمك؟  
أكتب النموذجين دون انحياز لأحدهما أو اختيار مسبق أمله على حالتي الشعرية وأجد نفسي في قيمة النتججة التي أنجنيها من مغامرة الكتابة.

ويهمني أثر ما أكتب وقدرته على إيصال أفكاره ومشاعري على اختلاف شكله. وعندي قناعة أن المضمون هو الذي يفرض الشكل لا العكس والمهم في العمل المبدع ما يحققه من فعل وقبول لدى المتلقي وما يقدمه من تجديد وتفرد لدى الشاعر بغض النظر عن شكله فالشكل وعاء تكمن قيمته في ما يحويه من مادة والعمل المثقن والصادق سيصل مهما كانت وسيلة التعبير المستخدمة.

• ما المطلوب من الشعر برأيك؟  
العمق في التجربة. والصدق في التعبير. والتجديد في الطرح والوضوح في الرؤيا. والدقة في الصياغة والتأني في الصناعة والمسؤولية تجاه المتلقي. والابتعاد عن النرجسية.

• من الشعر إلى السياسة، هل تقدم لك تجربتك في مجلس الشعب خبرة ما؟

تقدم لي الكثير.. وتعمق تجربتي وتجعلها أكثر التصاقاً بالواقع وانتماءً للوطن والإنسانية من خلال الاحتكاك اليومي بالناس ومكابدته همومهم والسعي لتحقيق أحلامهم. حيث تصير كل قصة مادة للكتابة وتوسيعاً للمدارك وأمانة يجب نقلها بصدق ومسؤولية.

كما تصبح الكتابة وما تمنحه من حضور معرفي ومنبري صوتاً يعبر عن وجع الناس ويجسد طموحاتهم تحت قبة البرلمان ويترك أثراً ويحصد إنجازاً على الأرض. باختصار إنها اقتران بين القول والفعل. وخاصة في هذه الحرب حيث نحتاج كل قصة مادة للكتابة وتوسيعاً للمدارك وأمانة يجب نقلها بصدق ومسؤولية.

• ما رأيك، بالبيت التالي: الشعر صعب وطويل سلّمه إذا ارتقي فيه الذي لا يقبمه؟

بالتأكيد.. فالاستسهال آفة يتعرّض لها الشعر من الكثيرين في هذا الوقت ولكن تبقى المهوية هي الأساس والتجربة هي المقياس.. والزمن كفيل بالفرض والغربة.

# دعد حداد وأمل جراح نموذجان لشاعرتين ابتعدتا عن نواح قصيدة الأنثى

النفسية، وبلصقته تحت عناوين موحية وموهبة ويقبل هذا شعرنا، إن لم نقبلوه فسنبدأ نوبة النحيب حول اضطهاد المرأة العنصرية تجاهها، حتى إنه تبرز ظاهرة ربما شاملة للجيل اليوم، ولكنها مخصصة للنساء أكثر، حيث يعتبرن أن كتابة الشعر اعتماداً على الأوزان القراهيدية سقطة ذكورية تجعل الشعر يثبت فوق شفاههن الناعمة فيسارعن إلى مقاطعته دون إدراك لمزايا قصيدة النثر، أو قصيدة التفعيلة أو القصيدة العمودية، ولكنني ساستعين بما بقصيدة أوردتها الشاعرة حداد وهي المحسوبة على شعراء قصيدة النثر ولكنها تورد نصاً موزوناً بعنوان «أسير الريح» فعد ياسرها انطلاقة ريحها الوزن إنما أعطاها بعداً إضافياً تقول:

«الربّع سيد البحار أنت قلت لي

الموت سيدي وأنت قلت لي

بأنتي بأنتي التي بأنتي

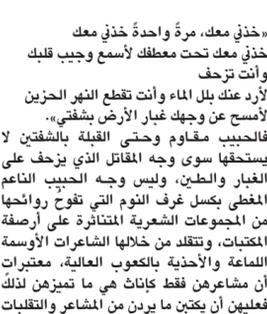
نسيت ما قد قلت لي

... عكازتي سفينة الظلال

وترتمي أشعة أسماء شاحبة

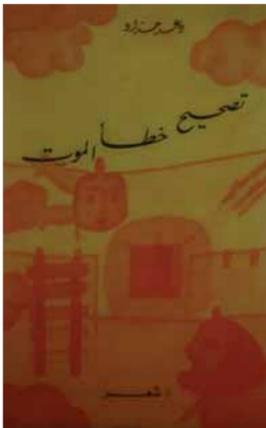
فقلتي لمرّة كمتعب ومتعبية».

إن الذي أورد هنا جزء يسير من الكثير من العبر التي يجب أن نتقدي بها في قراءتنا للشعر، وكتابتنا له، من متعدين عن هذا الطقس السائد والهواء الفاسد، مستندين إلى العديد من الدراسات التي أثبتت أنه ما من جدوى لهذا التمييز العنصري بين النص الموقع باسم أنثى أو ذكر، فالنص نص -والقصيدة قصيدة جيدة أوردية، وما هذه الشوايب التي تعلق هنا وهنا إلا أعواد نقاب محترقة حتى لو التصعت فهي لن تجرح اشتعالها، وما الشاعرتان السوربتان أمل جراح ودعد حداد إلا نموذجان من عشرات الشاعرات الحقيقيات اللواتي يجب الاهتمام بما كتبنه لأنهن كن بعيدات عن ترهات التحنيس مقتربات فقط من روح الشعر وعميق القصيدة.



«خذي معك، مرةً واحدةً خذي معك خذي معك تحت معطفك لأسمع وجيب قلبك الإنسان انتقاء الموت الذي يليق، بينما في النص لأرد عنك بل الماء وأنت تقطع النهر الحزين لأمسح عن وجهك غبار الأرض بقرفتان لا فالجيب مقاوم وحتى القيلة بالشفقين لا يستحقها سوى وجه المقاتل الذي يرحف على الغبار والطين، وليس وجه الحبيب الناعم حينما تغازل نتجه في غزلها إلى رجل المقاومة المخطئ بكسل غرف النوم التي تفتح ورائحتها من المجموعات الشعرية المنتشرة على أرضعة المختبات، وتتقلد من خلالها الشاعرات الأوسمة اللماعة والأحذية بالكعوب العالية، معتبرات أن مشاعرن فقط كإثبات هي ما تميزهن لذلك فعليهن أن يكتبن ما يردن من المشاعر والتقلبات

تقرأ النصين السابقين ستجد في الأولى صيغة العذاب الإنساني وهو اجس الموت وإمكانية الإنسان انتقاء الموت الذي يليق، بينما في النص الثاني تبرز الشاعرة حداد فكرة نقل الأفعال البشرية على جسد الأرض، وهما قفرتان لا تخصان قضية التحنيس في النص الأدبي إنما هما قادران على اختراق عوامل إنسانية مناسبة للزمن الذي نشر فيها الضمان ولربما لزمان ممتد أكثر فأكثر، وحين تؤكد أن الشاعرتين لم تتجاهلا زمنهما، نجد مثلاً أن جراح كانت حينما تغازل نتجه في غزلها إلى رجل المقاومة الفلسطيني في ذروة الزمن الذي ضغط العالم كله على المقاومة الفلسطينية وأراد كسرهما فتقول:



وبالمشابه ستجد أيضاً ذات التماسك وذات الهم الإنساني العام لدى الشاعرة حداد حيث تقول في نص بعنوان «أصبخوا السمع»:

«قرأت في صفحات الكتب السماوية

قرأت في صفحات الوجوه

التي حرمت نورها

وفي الحركات الطفولية

المفاجئة والمرتبعة...

أصبخوا السمع، حينما تتحدث الأرض عن

تشويق تربتها».

لقد اعتمدت كلتا الشاعرتين على القصيدة

بمحتواها وفكرتها الإنسانية من دون الانكفاء إلى

إيران صوت الأنثى في النص فانت قارئ حينما

قبل إنائه، حتى يبدو لناظر من بعيد أن القصيدة اليوم لم تخرج من غرف النوم وكأن الهواء الفاسد لم يقل ما لدينا من مشاعر بعد بل نصر على التوقوع في أمراض الروح والجسد. فهل من الممكن أن نجد منابر مضيئة فيما قدمته شاعرات فيما سبق، ربما أريد الاعتماد على شاعرتين من الجيل الذي نشر في سبعينيات وثمانينات القرن الماضي متبعداً عن الجيل التأسيسي علنا كتكتشف ملامح جديدة في القصيدة الموقعة باسم أنثى، وهما الشاعرة والروائية السورية أمل جراح (١٩٤٥-٢٠٠٤) والشاعرة السورية دعد حداد (١٩٣٧-١٩٩١) وهما تستعتمد على ديوان لكل شاعرة يعكس ملامح ما قدمته هاتان الشاعرتان في باكورة أعمال كل منهما وهو «رسائل امرأة دمشقية إلى فدائي فلسطيني ١٩٧٠» لأمل والديوان الآخر «تصبح خطا الموت ١٩٨١» لدعد، وتبدو أولى الملاحظات أن الشاعرة حداد قد نشرت في سن متأخرة وفي رصيدها ثلاث مجموعات شعرية فقط، بينما اتجهت الشاعرة جراح إلى الرواية بعد هذا العمل، كما أن كلتا الشاعرتين اعتمدت على قصيدة النثر في شعرهما، مبتعدات بشكل كامل عن الهمهمات والنوجات والكلمات المتناثرة على صفحات المجموعة الشعرية إنما تجد نصوصاً شعرية ذات حمل شعرية طويلة متماسكة ومسكوبة لا تعتمد التأتأة والبأبأة وسواهما من التعلّم في إيصال ما يردن من النص فلنقرأ في نص بعنوان «صبية تحت أقدام الفاتحين» للشاعرة جراح فتقول:

«أعرف، أنتي يوماً ما، سأرحل

كنت أعرف أنه لا بد يوماً، أن أذهب رحلتي

الأبدية

ودائماً أحاول ألا أفكر بصورة الرحيل

وكيف تكون

وأخاف أن تغلت هذه الحياة الثرية من يدي».